نظرة تاريخية

في حدوث المذاهب وانتشارها

ونريد بها الاربعة : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي المعمول بها عند جمهور المسلمين الى اليوم، وهي التي كتب لها البقاء والتغلب على سواها من مذاهب اهل السنة كمذهب سفيان الثوري بالكوفة والحسن البصري بالبصرة والاوزاعي بالشام والاندلس وغيرهما وابن جرير الطبري وابي ثور ببغداد وداود الظاهري في كثير من البلدان وغير ذلك من مذاهب فقهاء الامصار.

وكانت الفتيا قبل حدوث هذه المذاهب تؤخذ في عصر الصحابة عن القراء منهم. وهم الحافظون لكتاب الله العارفون بدلالاته فلما انقضى عصرهم وخلف من بعدهم التابعون اتبع اهل كل مصر فتيا من كان عندهم من الصحابة لا يتعدونها الا في اليسير مما يقع عن غيرهم. فاتبع اهل المدينة في الاكثر فتاوي عبدالله بن عمر، واهل الكوفة فتاوي عبد الله بن مسعود واهل مكة فتاوي عبد الله بن عباس، واهل مصر فتاوي عبد الله بن عمرو ابن العاص.

واتى بعد التابعين فقهاء الامصار كابي حنيفة ومالك وغيرهما ممن ذكرنا ومن لم نذكرهم فاتبع اهل كل مصر مذهب فقيهه في الاكثر ثم قضت اسباب انتشار بعض هذه المذاهب في غير امصارها وانقراض بعضها، ثم بطل العمل بمذهب الثوري والبصري لقلة اتباعهما وبطل العمل بمذهب الاوزاعي بعد القرن الثاني وبمذهب ابي ثور بعد الثالث وابن جرير بعد الرابع لانقراض غيرها من المذاهب الا الظاهري فقد طالت مدته بزاحم الاربعة الى جعله المقدسي في احسن التقاسيم رابع المذاهب في زمنه في القرن الرابع بدل الحنبلي وذكر الحنبلية في اصحاب الحديث وعده ابن فرحون في الديباج الخامس من المذاهب المعمول بها في زمنه اي في القرن الثامن ثم درس بعد ذلك ولم يبق الا الاربعة ومذاهب اخرى خاصة بطوائف من المسلمين لا يعدها جمهورهم من مذاهب اهل السنة وهذا لم نتعرض لذكرها.

وذكر ابن خلدون ان الظاهري درس بدروس ائمته وانكار الجمهور على منتحله ولم يبق الا في الكتب وربما يمكنهم متكلفو انتحاله عليها لاخذ فقههم منها فلا يحفلون بطائل ويصيرون الى انكار الجمهور عليهم. ولم يبق الا مذهب اهل الرأي من العراق واهل الحديث من الحجاز

وذلك بعد ان رحل الى الامام مالك واخذ عنه ولم يعد له مثيلاً فاجابه في الموطأ كما ذكروا بل قال له لما استزاده بعد فراغه من السماع منه: حديث مالك للناس، ابن حديث وامر ان احببت الرأي فعليك بالعراق .

وكان اهل مصر لا يعرفون هذا المذهب حتى ولى قضاءها اسماعيل بن اليسع الكوفي من قبل المهدي سنة ١٦٤ وهو اول قاض حنفي بمصر واول من ادخل اليها مذهب ابي حنيفة وكان من خير القضاة الا انه كان يذهب الى ابطال الاحباس فقل امره على اهل مصر وقالوا احدث لنا احكاماً لا نعرفها ببلدنا فعزله المهدي . ثم قضا فيها بعد ذلك مدة ثم كان العباسيين الا ان القضاء بها لم يكن مقصوراً على الحنفية بل كانت بولاه الحنفيون مرة والمالكيون والشافعيون اخرى الى ان استولى عليها الفاطميون فاظهروا مذهب الشيعة الاسماعيلية وولوا القضاء منهم تقوي هذا المذهب والدولة وعمل باحكامه الا انه لم يقض على المذاهب السنية في العبادات لانهم كانوا يبيحون للرعية التعبد بما يشاءون من المذاهب . قال في صبح الاعشى انهم كانوا يتالفون اهل السنة والجماعة ويمكنونهم من اظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ولا يمنعون من اقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد مع مخالفة معتقدهم في ذلك ومذاهب مالك والشافعي واحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب ابي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن مسائل الحكم به اجابوه انتهى . فلما ولي الوزارة ابو علي احمد بن الافضل بن امير الجيوش قضاة من المالكية والشافعية فاشار على الخليفة الحافظ لدين الله وسعه فانه اعلن بمذهب الامامية واقام اربعة قضاة : اثنان شيعيان احدهما امامي والآخر اسماعيلي ، واثنان سنيان احدهما مالكي والآخر شافعي ، يمكن كل قاض منهم يحكم بمذهبه ويورث بمقتضاه . فلما قتل ابو علي عاد الامر الى ما كانت عليه من مذهب الاسماعيلية ، ويظهر لنا ان بعض الفاطميين من المذهب الحنفي لم يكن الا لانه مذهب الدولة العباسية المناوئة لهم في المشرق .

ثم لما قامت الدولة الايوبية بمصر وكان سلاطينها شافعية قضوا على التشيع فيها وانشأوا المدارس للفقهاء الشافعية والمالكية وكانت نور الدين الشهيد حنفياً فنشر بمذهبه ببلاد الشام ومنها كثرت الحنفية بمصر ، وقدم اليها ايضاً عدة من بلاد المشرق فبنى لهم صلاح الدين الايوبي المدرسة السيوفية بالقاهرة ، وما زال مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ ، ولكن لم يبلغ المذهب مبلغه في القوة والكثرة بمصر الا في آخر هذه الدولة وأول من رتب درساً لاربعة المذاهب الاربعة في مدرسة واحدة الصالح نجم الدين ايوب في مدرسة الصالحية بالقاهرة سنة ٦٤١ ثم كثر هذا النوع من المدارس في السلطين الاتراك

والقضاة والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه اسلافه من ايثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم صرفه البارزي واعاد الامر الى حقه واجراه على قديم رسمه وحمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والاعزاز . فقد اليوم ان لا يلقوا ابا حامد ولا يقضوا له حقاً ولا يردوا عليه سلاماً وحلم على ابي محمد الا كفاية وانقطع ابو حامد عن دار الخلافة وامر القائم عليه والانحراف عنه وذلك في سنة ٣٩٣ وانصل ببلاد الشام ومصر .

وكان الغالب على افريقية المذهب والآثار الى ان قدم عبدالله بن فروخ ابو محمد الفارسي بمذهب ابي حنيفة ثم غلب عليها لما ولي قضاءها اسد بن الفرات بن سنان ثم بقي غالباً عليها حتى حمل المعز بن باديس اهلها على مذهب مالك وهو الغالب الى اليوم على اهلها الا قليلاً منهم يقلدون المذهب الحنفي . وفي الديباج لابن فرحون ان الحنفي ظهر ظهوراً كثيراً بافريقية الى قريب سنة ٤٠٠ فانقطع ودخل منه شيء ملوراءها من المغرب قديماً والاندلس ومدينة فاس . وفي احسن التقاسيم للمقدسي ان اكثر اهل صقلية حنفيون وذكر ايضاً انه سأل بعض اهل المغرب « كيف وقع مذهب ابي حنيفة رحمه الله اليكم ولم يكن على سابككم قالوا : لما قدم وهب بن وهب من عند مالك رحمه الله وقد حاز من الفقه والعلوم ما لم استكف اسد بن عبدالله ان يدرس عليه جلالته وكبر شأنه فرحل الى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلا فطال مقامه عنده فقال له ارجع الى ابن وهب فقد اودعته علمي وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على اسد وسأل هل يعرف مالك نظير فقالوا فتى بالكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة . قالوا فرحل اليه واقبل عليه محمد اقبالاً لم يقبله على احد ورأى فهما وحرصاً فزاد الفقه زفاً . فلما علم انه قد استقل وبلغ مراده خيره بين البقاء والى المغرب فلما دخلها اختلف اليه الفتيان ورأوا فروعاً حيرتهم ودقائق اعجزتهم ومسائل ما حدثت على اذن ابن وهب وتخرج به خلق وفشا مذهب ابي حنيفة رحمه الله بالمغرب . قلت فلم لم يفش بالاندلس ؟ قالوا لم يكن بالاندلس اقل منه عالما ولكن تناظر الفريقان يوماً بين يدي السلطان فقال لهم : من اين كان ابو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة فقال ومالك ؟ قالوا من المدينة قال عالم دار الهجرة فكفيا . فامر باخراج اصحاب ابي حنيفة وقال لا احب ان يكون في عملي مذهبان . وسمعت هذه الحكاية من عدة مشايخ من الاندلس » انتهى . قلت وفي هذه القصة ما لا يخفى من نظر فان وهب بن وهب هذا لا نعلم احداً ذكره فيمن اخذ عن الامام مالك وانما الآخذ عنه عبدالله بن وهب وهو لم يرحل الى المغرب بل كان بمصر ومات بها . وانما اسد بن عبدالله فقوله على ما يظهر ابو عبدالله ويكون المراد به ابا عبدالله اسد بن الفرات فهو الذي لقي محمد بن الحسن وفقه باصحاب الامام ابي حنيفة ونشر مذهبه بافريقية

الطحاوي التي زعم انها ماكان عليه الامام ابو حنيفة وصاحباه فلم يجد فيها الا ثلاث مسائل خالف فيها الاشعرية ثم تتبع كتب الحنفية فوجد المسائل التي يخالفون فيها الاشعرية في العقائد ثلاث عشرة مسألة منها ست معتزلية والباقي لغلي . فلما وكانه يريد ان خلافهم في هذه المسائل لايخرجهم عن كونهم اشعرية وان تسموا بالماتريدية لتصريحهم بعد ذلك بانها كالمسائل التي اختلف فيها الاشاعرة فيما بينهم ولان المسائل الثلاث عشرة لم يثبت جميعها عن النسخ ولا عن الامام ابي حنيفة .

المذهب المالكي

نسبة الى الامام مالك بن انس الاصبحي رضي الله عنه المولود سنة ٩٣ على الاشهر والمتوفى بالمدينة سنة ١٧٩ على الصحيح وهو ثاني الاربعة سناً في القدم ، ويقال لاصحابه اهل الحديث واختص امامه بتدرك آخر للاحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل اهل المدينة .

نشأ بالمدينة موطن الامام ثم انتشر في الحجاز وغلب عليه وعلى البصرة ومصر وما والاها من بلاد افريقية والاندلس وصقلية والمغرب الاقصى الى بلاد من اسلم من السودان . وظهر ببغداد ظهوراً كبيراً ثم ضعف فيها بعد القرن الرابع وضعف بالبصرة بعد الخامس وغلب في خراسان على قزوين وديلم وظهر نيسابور اولا وكان له بها وبغيرها ائمة ومدرسون ، وكان ببلاد فارس والمشرق باقين وكثير من بلاد الشام وكان محل بالمدينة لما تولى قضاءها ابن فرحون سنة ٧٩٣ اظهره بعد حوله .

واول من قدم به الى مصر على ما في خطط المقريزي عبدالرحيم بن خالد ابن ز يدن يحيى مولى جمح ثم نشره بها عبدالرحمن بن القاسم فاشتهر بها اكثر من مذهب ابي حنيفة لتوفر اصحاب مالك بها ولم يكن مذهب ابي حنيفة يعرف بمصر ، ويوافقه ما في الاوائل للسيوطي وذكره ذكر في حسن المحاضرة نقلا عن الديباج انه عثمان بن الحكم الجذامي ، وعبارة الديباج « مشهور من اصحاب مالك المصريين وهو اول من ادخل علم مالك بمصر ، ولم تنبت مصر قبله » الى ان قال وتوفي سنة ١٦٣ ، وكلا القولين صحيح ففي ترجمة عثمان الجذامي من تهذيب التهذيب لمحافظ ابن حجر ما نصه « وقال ابن وهب : اول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان ابن الحكم وعبدالرحيم ابن خالد بن يزيد » انتهى . فالظاهر انهما بعدان اخذا عن الامام عادا بها الى مصر ونشرا بها علمه .

والحركية وعدت في الاول عمل القضاة في بغداد الحنفية الى القضاء بعد انقطاعه عنهم مدة الطائفيين والاخيرة مدة الايوبيين على نواب مصر ومن المالكية والشافعية من القاضي الشافعي - ثم لما استولى المماليك على مصر حصروا القضاء في الحنفية واصبح الحنفي مذهب امراء الدولة وخاصتها ورغب كثيرون من اهل العراق في تولي القضاء الا انه لم يشتهر من اهل الرأي والحديث الا قليل في المدن والارياف كذلك الى اليوم .

اما مذهب داود في سائر البلاد الاسلامية وبعض نواحيه الكلامية والفقهية فلم يبق منه الا اسمه في العشائر في القرن الرابع ما ذكره المقدسي في احسن التقاسيم في كلامه على اقليم الجزيرة اذ كان الغالب على اهل صلفاء وصعدة رأي داود وغالب على فقهاء الجزيرة وقضاته وكانت منصوراً بالشام تكاد لا تخلو فيها قصبة او بلد من حنفي ورأيت كان القضاء بيدهم ولا اعلم اكثر العمل فيها كان على مذهب الشافعي في زمنه اي كما ذكر اصبر وكان في اقليم الجزيرة اي حران ورأس عين وما وراء النهر وغيرها الا في بلاد منبج ذكرها كان اكثرهم شافعية . وكان اهل حران وبعض قريتان من اقليم السلم حنفية . وكان غالباً على اهل دبيل من ايام الرحاب الذي منه الان وارمينية واذربيجان وتغر وبوجود في بعض مدنه الاشعرية . وكان غالباً على اهل الرأي من اهل نيسابور وكثيراً من اهل خوارزم الشمس قديماً الاهواز وكانت فيه بقية واسعة وكبرة وكان باقليم فارس كثير من الحنفية الا ان الغلبة كانت في السنين للشافعية وكان القضاء فيهم . وكانت فصيلة السند لا تخلو من فقهاء حنفية .

وفي معجم البلدان لياقوت ان اهل الري كانوا ثلاثة على المذهب الشافعي وهم الاقل وحنفية وهم الاكثر وداودية وهم السواد الاعظم ثم بقي اهل المذهبين وغلب الشافعية على ما حياتي . وذكر ايضاً ان أهل صحنات كانوا حنفية . وذكر ابن خرداذبه في المسالك ان ملوك بسجالة بلاد كانوا اليهودية حنفية . ولم اذكر في الطالعة جميع البلدان هذا المذهب اليوم في البلاد

***

وشيع الحنفية في العقائد مذهب الامام ابي منصور محمد بن محمد الماتريدي الحنفي ليس من اصحاب الامام الاشعري خلاف الاكثر بضع عشرة مسألة . ومنهم الشعرية ان على ما حتى قال من المتأخرين ان يكون حنفي المعتزلة . والذي في طبقات السبكي ان الحنفية اكثرهم الماتريدية ابي يعتقدون عقيدة الاشعري لا يخرج منهم الا من الحق بالمعتزلة وذكر انه تأمل عقيدة

بالاندلس . وكان رائد الجماعة شبطون وهو اول من ادخل الموطأ الى الاندلس مكملا منقحا ، فاخذه عنه يحيى بن يحيى ، ثم اشار على يحيى بالرحيل الى مالك فرحل واخذ عنه فكانت انتشار المذهب به وبزياد و بعيسى بن دينار . وقال في موضع آخر : ان سبب حمل ملك الاندلس الناس على هذا المذهب في بعض الاقوال ان الامام مالكا سأل عن سيرته بعض الاندلسيين فذكروا له عنها ما اعجبه فقال نسأل الله تعالى ان يزين حرمنا بملككم او كلاما هذا معناه وذلك لان سيرة بني العباس لم تكن مرضية عنده ولقي منهم ما لقي مما هو مشهور الى بلغ قوله ملك الاندلس مع ما علم من جلالة مالك ودينه حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الاوزاعي قلنا وقد ذكر هذا السبب ابن نبالة ايضاً في مرح العيون الا انه جعل ذلك في زمن عبدالرحمن الداخل والذي اجمع عليه المؤرخون ان دخول المذهب كان في زمن ابنه هشام .

ثم زاد انتشار هذا المذهب بالاندلس وبالمغرب بانتقال الفتيا اليه في دولة الحكم بن هشام وكان يحيى بن يحيى بن كثير مكينا عنده مقبول القول فصار لا يولي القضاء الا من اشار به فانتشر به مذهب مالك كما انتشر الحنفي بابي يوسف في المشرق .

وعلل ابن خلدون علة هذا المذهب على المغرب والاندلس تعليلاً آخر فقال « اعلم ان رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه اهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في غيرهم الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما ان رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته ، وايضاً فالبداوة كانت غالبة على اهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب » انتهى ، فما تقدم في الكلام على الخفي شيء عن سبب انقطاعه بالاندلس وغلبة المالكي فيها وهاك التفصيل .

ولما قامت دولة بني تاشفين بالمغرب الاقصى في القرن الخامس واستولوا على الاندلس وتولى ثانيهم امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اشتد ايثاره لاهل الفقه والدين فكان لا يقطع امراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء والزم القضاة بان لا يبتوا حكما في صغير الامور وكبيرها الا بمحضر اربعة من الفقهاء فعظم امر الفقهاء ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده الا من علم مذهب مالك فنفقت في زمنه كتب المذهب وعمل بمقتضاها وبذ ماسواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يكن احد

وفي خطط المقريزي ان هذا المذهب مازال معمولا به بمصر مع الشافعي وبولي القضاء من يذهب اليه او الى مذهب ابي حنيفة الى ان قدم القائد جوهر في حينئذ قتا بديار مصر مذهب الشيعة وعمل به في القضاء والفتيا واكرم اصحابه . فلما ثم عاد الى الانتعاش في الدولة الايوبية وبنيت لفقهائه المدارس ثم عمل به في القضاء استقلالا لما احدث الظاهر بيبرس في الدولة التركية البحرية القضاة الاربعة وصار قاضيه الثاني في المرتبة بعد الشافعي وكان القضاء في الايوبية للشافعية ولقاضيهم نواب من المذاهب الثلاثة . ولم يزل منتشراً بمصر الى الآن معادلا الشافعي وهو اكثر انتشاره في الصعيد .

وكان الغالب على اهل افريقية الى ثم غلب الحنفي كما تقدم لما تولى عليها المعز بن باديس سنة ٤٠٧ حمل اهلها واهل ما والاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي وحسم مادة الخلاف في المذاهب باقتصرت له العناية عليها وعلى سائر بلاد المغرب وفي ذلك يقول مالك بن المرحل المالكي شاعر المغرب :

مذهبي قيل خذ مذهب ... سيدي ماذا ترى في مذهبي
لا تحالف مالكاً في رأيه ... فعليه جل أهل المغرب

وهو الغالب على هذه البلاد الى اليوم . وذكر الذهبي في العقد الثمين في تاريخ البلد الامين أن المغاربة كلهم مالكية الا النادر منهم من ينتحلون الاثر .

وكان الغالب على اهل الاندلس مذهب الاوزاعي واول من ادخله بها صعصعة بن سلام لما انتقل اليها وبقي بها الى زمن الامير هشام بن عبدالرحمن ثم انقطع مذهب الاوزاعي منها بعد المائتين وغلب المالكي . وفي نيل الابتهاج ان اهل الاندلس التزموا مذهب الاوزاعي حتى قدم عليهم الطبقة الاولى من اتباع مالك كزياد بن عبدالرحمن والغازي بن قيس وقرعوس ونحوهم فنشروا مذهبه واخذ الامير هشام الناس به فالتزموه وحملوا عليه بالسيف الامن لا يوثق به .

وفي نفح الطيب في ان هذا المذهب انتشر بالاندلس بيحيى بن يحيى بن كثير وتفقه به جماعة لا يحصون وتوفي سنة ٢٣٤ وقيل ٢٣٣ . وفي خطط المقريزي والديباج لابن فرحون ان اول من ادخله بالاندلس زياد بن عبدالرحمن القرطبي الملقب شبطون قبل يحيى بن يحيى وكانت وفاة زياد سنة ثلاث وقيل اربع وقيل تسع وتسعين ومائة . وفي نفح الطيب تفصيل لذلك ملخصه ان جماعة من امثال شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن ابي هند وغيرهم رحلوا الى الحج في زمن هشام بن عبدالرحمن والد الحكم فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره واعظامهم به صيته بالاندلس فانتشر يومئذ رأيه وعلمه